

ملامح النشاط العلمي والروحي والثقافي بقسنطينة
أواخر العهد العثماني.

~~~~~ د. الطاهر بونابي\*

**مقدمة:** تميزت مدينة قسنطينة كبيئة علمية وثقافية عامرة منذ العصر الوسيط الإسلامي وخلال العهد العثماني بقوة نشاطها الديني وديمومة تدريس العلم بها، ويعزى ذلك إلى ميراثها من التعليم المسحدي الموعل في التاريخ، ومادته الدينية والمذهبية والأدبية واللاهوتية والفلسفية والعقلية، وكثافة إنتاج علمائها من المصنفات ناهيك على النشاط الصوفي، والعمل التربوي والطقوسي للطرق الصوفية وطرق المرابطين مما جعلها تمتلك مقومات إنجاب العلماء والفقهاء والصوفية والأدباء والشعراء، وكفل لها ذلك القدرة على تجديد دورة توليد الأفكار في الإصلاح الديني والاجتماعي والاجتهاد العلمي جيلا عقب جيل، فحق لها أن تكون البيئة التي تنبت العلماء "كما تنبت الأرض الكا"<sup>1</sup>.

فإلى أي مدى استطاعت أن تحافظ على وتيرة نشاطها الديني والعلمي أواخر العهد العثماني في سياق ظروف سياسية ودينية وثقافية وفكرية غير ملائمة؟

**1- المشهد الديني والعلمي والثقافي بقسنطينة أواخر العهد العثماني:** تسمح شهادة كل من أبي القاسم الزباني(1794-1833م) ومحمد الصالح العنتري(توفي بعد 1870م) وتراجم أبي القاسم الحفناوي(1852-1942م)، وتقارير المستكشفين الأوروبيين وقادة الاحتلال الفرنسي حول الحياة العلمية والثقافية بقسنطينة قبيل الاحتلال الفرنسي سنة 1837م. بمعانيه نوعين من النشاط العلمي والديني كانا سائدين بقسنطينة، حيث يتمثل الأول في النشاط العلمي والتعليمي والصوفي بالمساجد والمدارس، ويتمثل الثاني في العمل التربوي والطقوسي السائد في الزوايا التابعة لطرق المرابطين.

**أ- النشاط التعليمي والعلمي:** ونعني به ذلك النشاط التعليمي والعلمي الذي بذله علماء وفقهاء وصوفية مدينة قسنطينة في تلقين التلاميذ والطلبة لأصناف العلوم بالمساجد والمدارس، ومن أبرزها المسجد الكبير وجامع سيدي علي بن مخلوف وجامع رحبة الصوف وجامع القصبة وجامع سيدي الجليس وجامع سوق الغزل وفي المدارس أيضا، كمدرسة سيدي الكتاني ومدرسة سيدي الأخضر، وقد رافق هذا النشاط أيضا حركة من التأليف في فنون معرفية شتى.

تعكس ذلك شهادة أبي القاسم الزباني(1794-1833م) الذي سمحت له إقامته القصيرة بقسنطينة في سياق ظروف لجوئه إلى تلمسان أوائل القرن 19م<sup>(2)</sup> من أن يلتقي ويحتك بشيوخها الذين يعتبرون في هذه الفترة امتدادا طبيعيا لحركة العلم التي شهدتها قسنطينة منذ عهد صالح باي (1771م-1792م)<sup>(3)</sup>.

\*أستاذ محاضر في تاريخ المغرب الإسلامي - قسم التاريخ - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة محمد بوضياف - المسيلة.

فلقي من العلماء والفقهاء والصوفية والأدباء نوعين: عينة سعى إلى التعرف إليها والاستفادة من علومها وعينة أخرى اتصلت به واجتمعت به في محل إقامته. فأما العينة الأولى فهم الذين اجتمع بهم واستأنس بمذاكرهم واستفاد من محاضراتهم كوصفه للقاء الذي جمعه بأبي الحسن الونيسي بقوله: "اجتمعت بها- قسنطينة- مع الفقيه العلامة الصوفي أبي الحسن علي بن مسعود الونيسي وأنسنا بمذكراته ومحاضراته أبقاه الله فخرا للإسلام"<sup>(4)</sup>.

ورغم هذا الإعجاب إلا أننا لا نعرف عن نشاط الشيخ أبي الحسن الونيسي سوى رسالته في دور إثبات نبوة خالد بن سنان العبسي"<sup>(5)</sup>. وأنه أنجب من الأولاد العلامة أبي عبد الله محمد فتحا (1817م- 1844م). كما يأتي الحديث عنه لاحقا<sup>(6)</sup>.

كما يذكر أنه تردد على المسجد العتيق- الجامع الكبير- واجتمع فيه بالإمام الخطيب "الولي الصالح أبي البركات مبارك بن الفقيه العلامة سيدي عمر الصائغي"<sup>(7)</sup>، وتباحث معه وسأله في مواضيع أحجم عن ذكرها واكتفى بسرد "وظيفة النجاة" التي سمعها منه، والتي اعتبرها "أماناً من الغرق والحرق والأسر"<sup>(8)</sup>. ما يعكس استئناس المثقف أواخر العهد العثماني بوظائف النجاة شأنه شأن ذهنية الإنسان العادي في جعلها عدته في الأسفار تقيه أخطار الطريق وأهواله.

أما العينة الثانية التي التقى بها في بيته فمنها من وجوه القضاء والفتيا كل من أبي القاسم المختالي وأحمد بن مبارك العلمي، حيث وصف لقاءاته المتكررة بالمختالي بالحميمية وأدرج طابعها في باب الإحسان والتخفيف من ضجر الغربة عن الديار في قوله: "وكان يأتيني لبيبي ويؤنسني ويذاكرني بما يسلي مهجتي ويزيل قنطي"<sup>(9)</sup>. في حين ارتقى جلوسه إلى الشيخ العلمي إلى مستوى الاستئناس بمحاضراته وحسن أدبه"<sup>(10)</sup>.

ولم تقتصر لقاءات الزباني على عينة الصوفية والفقهاء والقضاة وحسب بل توسعت إلى أهل الأدب والشعر، فقد تحول لقاؤه بالفقيه الأديب الكاتب محمد المجاري الخوجة إلى لقاء بين شيخ وطالب علم حيث أجاز الزباني المجاري وسجل حول مجمل اللقاء بقول: "وأخذ عنا وأراد طلبها منا فأسعفناه بتلقينها"<sup>(11)</sup>. فضلا على الأديب الشاعر الونيس البوزنباري صاحب القصائد العالية الذي آتخف الزباني في أثناء اللقاء بينهما<sup>(12)</sup>.

في حين أدرج الزباني اللقاء الذي جمعه بالأديب محمد بن كشك علي كرغلي تحت عنوان الحنة السياسية، فقد عرفا نفس المصير وضاقا آلام المطاردة السياسية، بينما كان الزباني لاجئا سياسيا يعيش الغربة والنوى بعيدا عن أرض المغرب الأقصى، تعرض محمد بن كشك علي كرغلي إلى محنة أصابته من الباي حسن أفقده أمواله ومحتويات بيته لأنه كان محسوبا على تيار صالح باي المنقضية عهده.

وقد تمخض عن هذا اللقاء نصيحة أدلى بها محمد بن علي كشك إلى أبي القاسم الزباني تدرج ضمن الوصية السياسية ومختصرها "إياك أن تحدث نفسك بالعودة إلى هذه الخطة الخسيسة والخدمة النجيسة"<sup>(13)</sup>.

لقد كان محمد بن علي كشك يعبر عن صوت الشريحة الكرجلية المثقفة والواعية التي كانت ترى في نظام البايات نظاما يتجاوز الزمن، وهي بذلك تحاكي في تطلعها شريحة البرجوازية الأوروبية المستنيرة في كفاحها ضد النظم الملكية المطلقة في أوروبا.

وبقدر ما تعد شهادة الزباني مهمة في إخراج هذه العينات من شيوخ العلم والدين إلى النور فإنها لم تلامس الواقع الثقافي والفكري والديني والاجتماعي بقسنطينة في هيئته الشاملة؛ فقد كان نطاق اهتمام الزباني يتراوح بين المسجد العتيق- المسجد الكبير- ومقر إقامته ودار الباي الحسن، وهو المجال الذي انحصر فيه نشاطه شأنه في ذلك شأن مؤرخ السلطان في الاهتمام بالنخب والسلطة، ورغم ذلك فإن إقامة الزباني القصيرة في قسنطينة تعد أحد مظاهر الثقافة بكل أبعادها بين قسنطينة والمغرب الأقصى آواخر العهد العثماني.

وإذا كان هذا شأن الزباني في انتقاء العينات الدينية والثقافية والفكرية والأدبية والسياسية؛ فإن ما جاء به كل من العنتري والحفناوي قد أرّخ لتناسل علمي وديني وثقافي نلمس خيوطه مع عودة طلبة جامع الزيتونة إلى قسنطينة وهم:

أبو عبد الله محمد الحفصي (ت1815م) وأحمد بن سعيد العباسي (ت1835م) ومصطفى بن الشاوش القسنطيني (ت1836م) مزودين بعلوم الزيتونة ومؤثراتها، وبينما تولى محمد الحفصي منصب القضاء ونبغ في الحديث حفظا وإدراكا، وألف في المنطق حاشية على كتاب "السلم المرونق" للأخضري وتقاييد في فنون علمية متنوعة<sup>(14)</sup>.

جمع قرينه العالم النحرير أحمد العباسي<sup>(15)</sup> بين تكوين الطلبة بمسجد علي بن مخلوف ورحبة الصوف والخطابة والقضاء والنظر على الأوقاف، وقد أهله لذلك إمامه بعلم الحديث والمنطق وعلم الكلام والعلوم الإلهية- الفلسفة- وتحكمه في فن القراءات وأدب المناظرة التي كتب فيها كذلك المؤلفات<sup>(16)</sup>.

ومن أشهر تلامذته كل من محمد العربي بن عيسى (ت1836م) ومحمد الشاذلي (ت1844م) ومحمد بن سالم المعروف بابن الطبال الحنفي (ت1834م) وبينما اقتفى محمد العربي شيوخه العباسي في التدريس بمسجد سيدي الجليس، وتولى إلى جانب القضاء<sup>(17)</sup> منصب ناظر الأوقاف<sup>(18)</sup>، لازم محمد الشاذلي شيخه العباسي "حتى نبغ في فنون الأدب"<sup>(19)</sup>، في حين أخذ ابن الطبال عنه الكثير ولازمه حتى نبغ في البديع والأصول والمنطق، ثم تولى التدريس بمدرسة الجامع الأخضر والخطابة والإمامة بجامع سوق الغزل<sup>(20)</sup>.

وكذلك نبغ الأديب الشاعر عمار الغربي المكيني بأي راشد القسنطيني (ت1835م) أحد أقران الشيخ العباسي بأعباء تدريس الأدب والفقه بمدرسة الكتاني وجامع القصبة، وتولى الخطابة والفتوى المملكية بمسجد سيدي علي بن مخلوف، وقد ترك لنا من التأليف حاشية على شرح مختصر إبراهيم الشيرخيتي<sup>(21)</sup>.

فضلا على نشاط عمار بن شريط (ت1834م) ومساهمته كذلك في الأدب والبلاغة والحديث والأصول<sup>(22)</sup> واضطلاعه بشؤون الفتوى المالكية ونظارة الأوقاف<sup>(23)</sup>.

ونظرا لعلو كعبه في هذه الفنون الأدبية والمعرفة الشرعية فقد وصفه أبو القاسم الحفناوي بالفرد والإمام القدوة، وعدّه من نظراء الشيخ محمد الحفصي<sup>(24)</sup>، وعلى خطي هؤلاء العلماء تبحر الفقيه الحنفي مصطفى بن الشاوش (ت1836م) في العربية وفنونها، وتألّق في التدريس وفي الخطابة بالجامع الأخضر<sup>(25)</sup>.

وقد شارك طلبة الزيتونة في تنشيط الحياة الدينية والعلمية كذلك عدد من شيوخ العلم مثل محمد بن علي الطلحي (ت1816م) إمام مسجد سيدي مسلم الجراي الذي تميز نشاطه بتدريس الطلبة والتقرير على هوامش الكتب بعد تكوين علمي تلقاه عن شيخه عمار العربي<sup>(26)</sup>، والأديب الصوفي عمار الشريف (ت1826م) متولي الخطابة ونظارة الأوقاف ومنصب القضاء بجامع رحبة الصوف<sup>(27)</sup>، والفقيه مصطفى العجمي (ت1824م) إمام جامع سوق الغزل ومكمل شرح الشيخ سالم السنموري على مختصر خليل<sup>(28)</sup>، فضلا على جهود محمد الونيسي (ت1844م) ابن الشيخ أبي الحسن سابق الذكر في الفقه والمنطق والتوحيد حيث وصفه الحفناوي "بنادرة زمانه وخليل أوانه"، ورصد من مؤلفاته حاشيته على إيساغوجي في المنطق وحاشيته على صغرى الإمام السنوسي ومؤلف في أحكام الخنثى وشروحات منها شرح على البسملة وشرحين في التوحيد عرف بالشرح الصغير والشرح الكبير ونظما في التوحيد وآخر في التصريف ورسائل وتقارير على خطب<sup>(29)</sup>، وإذ كان جل هذا النشاط قد انحصر في ما يمكن أن نطلق عليه العلوم الدينية، فإن فنونا علمية وأدبية أخرى قد اندرست وغابت مثل فن التاريخ والأنساب والأدب بمفهومه الواسع. وحسبنا أن غياب هذه الفنون كانت ظاهرة عامة سادت الجزائر العثمانية لفت نظرنا إليها أبو راس الناصر محمد بن أحمد العسكري (1735م/1822م)، وقد تألم لاندثار رسمها وغياب معالمها في قوله: "إني في زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده، وسدت مصادره وموارده، وخلت دياره ومراسمه، وعفت أطلاله ومعالمه، ولا سيما فن التاريخ والأدب وأخبار الأوائل والنسب، قد طرحت في زوايا المهجران، ونسجت عليها عناكب النسيان، وأشرفت شمسها على الأفول، واستوطن فحولها زوايا الخمول يتلهفون عن اندراس العلم والفضائل ويتأسفون من انعكاس أحوال الأذكياء والأفاضل..."<sup>(30)</sup>.

ومما ساعد على ديمومة حركة النشاط التعليمي والعلمي بقسنطينة كثرة الأوقاف المخصصة للمساجد والمدارس والجموع الصغيرة، مما جعل التعليم فيها مجانيا استقطب التلاميذ والطلبة من داخل مدينة قسنطينة وضواحيها كذلك ومدن الإقليم الأخرى كما سنعرضه لاحقا.

ورغم أن هذا النشاط التعليمي والعلمي كان يفتقر إلى الجدة والعمق والموسوعية، وانحصر في شرح الشروح والتعليق على حواشي المصنفات إلا أن شيوخه الذين تبوأوا كرسي الدرس والإمامة والقضاء والإشراف على الوقف قد ارتقت منزلتهم الاجتماعية بفضل ما كانوا يتقاضونه إلى مصاف الأعيان

وأرباب الدولة من أصحاب الثقل السياسي والعسكري وشيوخ البوادي- رمز الإقطاع الزراعي-، وحسبنا من القرائن أن وثيقة حط المغارم التي وقعها الحاج أحمد باي مع المسؤولين في دولته من جهة وعلماء قسنطينة من جهة أخرى سنة 1246هـ/1830م، تعكس حجم النفوذ الروحي والاجتماعي الذي أحرزه العلماء من موقع مناصبهم الدينية والعلمية التي كانوا يتولونها والأختام التي كانوا يوقعون بها؛ فهذا الفقيه محمد الفكون كان متولياً منصب شيخ البلد ومصطفى بن السادات منصب قاضي الحنيفة وأحمد العباسي قاضي المالكية ومحمد العربي بن عيسى على الأوقاف وعمار بن شريط مفتي المالكية<sup>(31)</sup>.

ب- **الظاهرة الصوفية في مشهدها الأخير:** لا مناص من التذكير بأن مصطلح الطريقة الصوفية بمفهومه اللغوي والاصطلاحي في العصر الوسيط لم يعد له حضور في المشهد الديني والروحي والثقافي والفكري بقسنطينة آواخر العهد العثماني سوى في حدود معينة، ذلك لأن ظاهرة المرابطين قد أخذت في تبوأ مكانة الطريقة الصوفية منذ النصف الأول من القرن 16م، وتقمصت الجوانب الروحية والطقوسية بعد ذلك من الطريقتين الصوفيتين القادرية والشاذلية، اللتين وقع التناسل منهما إلى طرق مرابطية طقوسية شهدت قسنطينة منها في آواخر العهد العثماني كل من الطريقة الرحمانية والطريقة الحنصالية والطريقة العيساوية والطريقة التيجانية ومعها ساد الانتماء الطرقي كل بيت قسنطيني.

وإذا كانت تنف المعلومات الواردة في المصادر التراثية الجزائرية حول الظاهرة المرابطية في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني أي أوائل القرن 19م حتى سقوط قسنطينة 1837م يصعب من خلالها تأليف نظرة شاملة حولها فإن ما رشح من مصادر التراجم حولها كشف لنا عن صورة استمرار المستوى النظري والتجريدي للتصوف في التجربة الروحية للمرابطين الكفاء والعلماء المضطلعين المجتهدين داخل المدينة.

فقد صاحب نشاط الطريقة الرحمانية بقسنطينة استمرار بريق التصوف في تجربة شيخها عبد الرحمن باش تارزي (ت 1221هـ/1816م) الذي حافظ على الانتساب للطريقة الشاذلية فكريا وعمليا في اعتماده وسيلة الذكر طريقا في الوصول إلى اكتساب المواهب والعلوم اللدنية<sup>(32)</sup>. بأن اعتبر للهيللة ذكر بين شرعي واصطلاحي، والشرعي له شروط عربية لغوية ونحوية وتجودية- الإنشاد- والاصطلاحي ليس له إلا شرط واحد قلبي، وهو استحضار المعني عند ذكر الكلمة المشرف- أي ذكر الله- "سواء حصل الشرط العربي أم لم يحصل"<sup>(33)</sup>.

وبهذا يكون قد فتح باب اكتساب العلوم اللدنية أمام العوام بما في ذلك الأميين من الناس، شرط الحضور عند الذكر- الحضور القلبي- لذلك اعتبره أبو القاسم الحفناوي "ناشر الطريقة الرحمانية بقسنطينة"<sup>(34)</sup>، ولم يكن عبد الرحمن باش تارزي ملما بالجانب السلوكي في الطريقة الشاذلية وحسب وإنما كان كذلك متقننا لاصطلاحاتها عارفا بأغوار التصوف وطرق التربية في الطريقة؛ فكتب في ذلك متأثرا بالشيخ أحمد زروق البرنسي (ت 899هـ/1493م) مؤلفاته منها: "عمدة المريد في بيان الطريقة"

و"المنظومة الرحمانية" التي شرحها بعد ذلك ابنه الشيخ مصطفى متولي مشيخة الطريقة بعد وفاة والده<sup>(35)</sup> فضلا على كتابه "غنية المريد" شرح فيه أربعين مسألة في التوحيد ما يعكس حضور عنصر التوحيد العرفاني الأسمائي والذوقي في تجربته الصوفية حيث يدل شرحه في "غنية المريد" على أنه "يتكلم عن بصيرة وعلم لدي" على حد تعبير الحفناوي<sup>(36)</sup>. الأمر الذي جعلها تبدو طريقة صوفية أكثر منها طريقة مرابطة، غير أن ذلك فيها يبدو قد شمل رأس الهرم في الطريقة ولم يختص بها أتباعها وخصوصا بالأرياف والبوادي شفيعنا في ذلك تأثر كل من العالم أبي عبد الله محمد بن الحبيب وعلي بن مسعود الونيسي ومحمد المجاري بأفكار التصوف التي طرحها عبد الرحمن باش تارزي، ولا نعلم عن نشاط هؤلاء سوى التمر القليل من الأخبار؛ فبينما أفادنا أبو القاسم الحفناوي بأن محمد بن الحبيب قد لازم القطب سيدي عبد الرحمن باش تارزي، وتحلى بعلم الباطن، واتخذ الخلوة مسكنا والاعتزال رضا، واقتصر على التدريس بمدرسة سيدي الأخضر<sup>(37)</sup> اكتفى أبو القاسم الزباني في أوائل القرن 19م بوصف كل من علي بن مسعود الونيسي ومحمد المجاري بالصوفية تميزا لهم عن المرابطين<sup>(38)</sup>.

ولا شك أن زاوية باش تارزي قد اضطلعت إلى جانب التربية الصوفية بالوظائف الاجتماعية شأما في ذلك شأن زاوية بيت الفكون التي يظهر من خطاب شيخها العالم الجليل الخطيب محمد بن الفكون إلى قائد القوات الفرنسية الغازية لمدينة قسنطينة سنة 1837م طابع الوظيفة الاجتماعية التي كانت تمارسها في قوله: "ونحن زاوية، ملجأ القليلين نطعم الطعام لوجه رب العالمين"<sup>(39)</sup>.

مما يوحى بتراجع زاوية الفكون في آواخر العهد العثماني عن وظيفتها العلمية والدينية كمنارة للفقه المالكي والتصوف وفق الطريقتين الشاذلية والزروقية قياسا بنشاط علمائها في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين (16 و17م)<sup>(40)</sup>.

**2- حقيقة المؤسسات الدينية والتعليمية في قسنطينة (بين الوثائق العثمانية والمنظور البيوغرافي الفرنسي):** تكشف الوثائق العثمانية الرسمية التي استحوذ عليها الضباط الفرنسيون بمدينة قسنطينة عن حجم وأعداد المؤسسات الدينية والتعليمية التي عرفت قسنطينة قبل سقوطها في يد الاحتلال الفرنسي وماتلاه من عمليات الهدم وإعادة تأهيل المدينة وفق حياة الاستيطان الأوروبي الجديدة بدءا من سنة 1837م، ومن هذه الوثائق تلك التي استحوذ عليها الرائد والمترجم العسكري ممثلة في وثائق رسمية وسجلات وقفية، أمكنته من أن يكتب على ضوءها L.Féraud تقريره المعلوماتي ذي الصبغة البيوغرافية ضمنه في عنوان:

Les anciens établissements religieux musulmans de constantine

في نشرته المعاهد الدينية القديمة بقسنطينة، مقتديا في ذلك بتجربة M.Brasselard في نفس الموضوع حول معاهد مدينة الجزائر<sup>(41)</sup>، وبما كتبه A.Devoulx، وهذه الوثائق والسجلات التي استند إليها تمثلت في:

وثيقة رسمية عليها ختم صالح باي مؤرخة في ربيع الأول 1190هـ/1776م، والثانية تتعلق بالسجل الكبير Le grand Registre الذي ضمن فيه صالح باي تسجيلاً عاماً للمؤسسات الدينية والأحباس المخصصة لها، والثالثة تتمثل في السجلات الخاصة بمساجد مدينة قسنطينة<sup>(42)</sup> " Les petits registres particuliers des mosquées " التي وصفها.

وقد رشح له من هذه الوثائق والسجلات معطيات مهمة أسعفتنا في تصور حجم وعدد هذه المؤسسات من عهد صالح باي 1771م-1791م إلى نهاية عهد أحمد باي 1837م.

فأما الوثيقة الرسمية المؤرخة في ربيع الأول 1190هـ/1776م فقد تضمنت أسباب نفوس صالح باي بالأوقاف<sup>(43)</sup> ومجمل التشريعات والتدابير العلمية التي اتخذها في إرساء نظام وقفي كان له الأثر الكبير في تغيير ملامح الحياة الدينية والعلمية والاجتماعية بقسنطينة<sup>(44)</sup> إلى لحظة الاحتلال الفرنسي سنة 1837م، ويؤيد ذلك شهادة الرحالة الإنجليزي جوزيف بلاكسلي لدى زيارته قسنطينة بعد 1850م، والذي جاء تعليقه ترجمة لتجليات مشروع الوقف الذي أرسى دعائمه صالح باي بقسنطينة وديمومته كتنظيم مالي واجتماعي مول المساجد والزوايا والمدارس في قوله: "كانت الأوقاف كثيرة وهي مورد التعليم المجاني، وكانت تزيد على حاجة المدرسة والمسجد فيخصص منها جانب للفقراء"<sup>(45)</sup>.

في حين توصل من خلال التسجيلات المسجدية إلى وضع قوائم لأعداد المساجد والزوايا والمدارس بأسمائها نسبة لأصحابها أو لأماكن تواجدها فجاءت على النحو التالي: 75 مسجداً- 13 زاوية- 7 مدارس<sup>(46)</sup>، وتظهر أهمية هذا العمل الترقيمي والبيوغرافي في آن واحد كون "فيرو" أوضح مآل بعض المساجد في لحظة كتابته لهذا التقرير في 9 ديسمبر 1867م مما سمح لنا بتتبع مصير المؤسسات التي شملها التخريب أو تم تحويلها إلى مصلحة الجيش الفرنسي حتى 1867م.

ولم يكتف "فيرو" بذلك بل تطرق إلى بيان أهمية هذه السجلات المسجدية في الوقوف على جوانب الأوقاف بالمساجد والمدارس من حيث مداخلها الوقفية ومقادير الإنفاق على صيانتها، وكذا أجور العاملين بها من بداية راتب ناظر الأوقاف إلى الإمام والمؤذن والمقرئ للقرآن والمدرس والمتمدرس وعمال الصيانة والتنظيف. واقتصر فقط على ضرب أمثلة تخص ميزانية كل من المسجد الكبير بالبطحاء استناداً إلى وثيقة مؤرخة في جانفي 1792م والمسجد الكبير بسوق الغزل ونفقات العاملين بإحدى المدارس، ونظراً لأهمية تقريره في رصد عناوين المساجد والزوايا والمدارس، رأيت ترجمتها في جداول تعكس حجم البنية الدينية والثقافية العامرة لمدينة قسنطينة قبيل احتلالها سنة 1837م.

أولاً: مساجد وجوامع مدينة قسنطينة ونواحيها قبيل احتلالها، وما طرأ عليها من تبدل حتى 1867م.

| مساجد وجوامع مدينة قسنطينة حسب سجلات<br>مسجدية | حالتها سنة 1867م حسب تقرير<br>فيرو |
|------------------------------------------------|------------------------------------|
| 1- المسجد الكبير بالقصبة                       | مدمر                               |
| 2-المسجد الكبير بالبطحاء                       | مخصص للعبادة الإسلامية             |
| 3-مسجد سوق الغزل                               | كنيسة                              |
| 4-مسجد سيدي الكثاني                            | مخصص للعبادة الإسلامية             |
| 5- المسجد الكبير برحبة الصوف                   | مستشفى مدني                        |
| 6- مسجد سيدي مفرج                              | مدمر                               |
| 7- مسجد سيدي علي مخلوف                         | مدمر                               |
| 8- مسجد سيدي عبد القادر بالقصبة                | مدمر                               |
| 9- مسجد سيدي أحمد بن غلناس                     | مدمر                               |
| 10- مسجد سيدي الوارد                           | مدمر                               |
| 11- مسجد سيدي ربي                              | مدمر                               |
| 12- مسجد سيدي راشد                             |                                    |
| 13- مسجد سيدي ابراهيم الراشدي                  |                                    |
| 14- مسجد أربيان الشريف                         |                                    |
| 15- مسجد سيدي الصفار                           |                                    |
| 16- مسجد سيدي مومن                             |                                    |
| 17- مسجد سيدي فليو السري                       |                                    |
| 18-مسجد سيدي الأبيض                            |                                    |
| 19-مسجد سيدي فران                              |                                    |
| 20-مسجد سيدي منديل                             |                                    |
| 21-مسجد سيدي عمر الوزان                        |                                    |
| 22-مسجد سيدي عبد الله بومعزة                   |                                    |
| 23-مسجد سيدي عثمان                             |                                    |
| 24-مسجد سيدي بو عنابة بالقصبة                  |                                    |
| 25-مسجد سيدي الجوارى الكبير                    |                                    |
| 26-مسجد سيدي الشقفة                            |                                    |
| 27-مسجد سيدي بو عنابة بباب الجابية             |                                    |
| 28-مسجد سيدي علي القفصي                        |                                    |
| 29-مسجد سيدي يحيى الفسيلي                      |                                    |
| 30-مسجد سيدي عبد الرحمن المناطقي               |                                    |
| 31-مسجد سيدي الخزار                            |                                    |
| 32-مسجد عبد المومن                             |                                    |
| 33-مسجد سيدي قرونوش                            |                                    |
| 34-مسجد سيدي علي تلمساني                       |                                    |



|                                     |  |
|-------------------------------------|--|
| 35-مسجد الحفصة                      |  |
| 36-مسجد سيدي نيراش                  |  |
| 37-مسجد سيدي فتح الله               |  |
| 38-مسجد سيدي فتيش                   |  |
| 39-مسجد سيدي طنحي                   |  |
| 40-مسجد محمد الشريف                 |  |
| 41-مسجد أحمد زروق أو (جامع الجوزاء) |  |
| 42-مسجد سيدي بوردة                  |  |
| 43-مسجد سيدي شاذلي                  |  |
| 44-مسجد سيدي محمد الزواق            |  |
| 45-مسجد سيدي محمد التجار            |  |
| 46-مسجد سيدي ذرار                   |  |
| 47-مسجد سيدي عبد المالك             |  |
| 48-مسجد سيدي القرانية               |  |
| 49-مسجد سيدي الحاج                  |  |
| 50-مسجد سيدي خليل                   |  |
| 51-مسجد سيدي عبد الله شريف          |  |
| 52-مسجد سيدي حيدان                  |  |
| 53-مسجد سيدي حسونة                  |  |
| 54-مسجد سيدي الجوار                 |  |
| 55-مسجد سيدي البيازري               |  |
| 56-مسجد سيدي الأندلسي               |  |
| 57-مسجد سيدي دهان                   |  |
| 58-مسجد سيدي رماح                   |  |
| 59-مسجد سيدي جليس                   |  |
| 60-مسجد سيدي الصبان                 |  |
| 61-مسجد سيدي ميمون                  |  |
| 62-مسجد سيدي قيس                    |  |
| 63-مسجد سيدي بوشداد                 |  |
| 64-مسجد سيدي مرعب                   |  |
| 65-مسجد سيدي حجام                   |  |
| 66-مسجد سيدي عبد الهادي             |  |
| 67-مسجد سيدي زواري                  |  |
| 68-مسجد سيدي محمد بن ميمون          |  |
| 69-مسجد سيدي عبد الرحمن القروي      |  |
| 70-مسجد سيدي الفوال                 |  |

|                                    |  |
|------------------------------------|--|
| 71-مسجد سيدي الغماري               |  |
| 72-مسجد سيدي فاليو الكبير          |  |
| 73-مسجد سيدي مسلم                  |  |
| 74-مسجد سيدي ياتمين                |  |
| 75-مسجد سيدي القادر                |  |
| 76-جامع سيدي علي وساري             |  |
| 77-جامع سيدي علي شريف بكدية علي    |  |
| 78-جامع سيدي سعيد الصفراوي بالكدية |  |
| 79-جامع سيدي فرج بالكدية           |  |
| 80-جامع سعد الله بالكدية           |  |

#### ثانيا: زوايا مدينة قسطنطينة قبل الاحتلال الفرنسي

|                                      |
|--------------------------------------|
| 1-زاوية الخرازين (أو بن الفكون)      |
| 2-زاوية أولاد بن جلول                |
| 3-زاوية الخراشقين أو (أولاد بن جلول) |
| 4-زاوية الصواريد                     |
| 5-زاوية سيدي علي التلمساني           |
| 6-زاوية الرقايقين                    |
| 7-زاوية باب الواد                    |
| 8-زاوية أولاد بن باديس               |
| 9-زاوية سوق الخرق                    |
| 10-زاوية النجارين                    |
| 11-زاوية بن الواعر                   |
| 12-زاوية بن الريبي                   |
| 13-زاوية رضوان                       |

#### ثالثا:مدارس مدينة قسطنطينة قبل الإحتلال الفرنسي

|                                             |
|---------------------------------------------|
| مدرسة سيدي الكتاني (ملحق مسجد سيدي الكتاني) |
| مدرسة سيدي بو مسيبة                         |
| مدرسة سيدي حيلوف                            |

ونلفت النظر إلى أن المساجد والزوايا والمدارس التي لم يشر "فيرو" إلى مصيرها لحظة كتابته لهذا التقرير سنة 1867م، قد صارت مهجورة بعد أن استحوذ الفرنسيون على أواقفها والبعض الآخر منها

شمله الدمار في أثناء تأهيل فرق الهندسة المدنية التابعة للجيش الفرنسي للمدينة وفقا لاحتياجات المستوطنين الجدد.

#### الهوامش:

- (1) استعرت هذا التشبيه من قول أحمد بن الحسن بن قنفذ القسنطيني (ت1407/هـ810م) في وصفه لبيئة المغرب الأقصى التي يقول فيها بأنها "الأرض التي تنبت الصالحين كما تنبت الكلاء". أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفاسي وأودلف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص63.
- (2) أقام أبو القاسم الزياتي 1794م/1833م لاجئا سياسيا بتلمسان مدة سنة ونصف شرب زلاتها واستنشق عرقها على حد تعبيره. الترجمة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيالي، دار المعرفة، الرباط، 1991، ص144.
- (3) يعتبر عهد صالح باي 1771م/1792م من أزهى العهود اعتناء بالعلم ومؤسساته، وقد تجلى ذلك في بنائه للمدارس أبرزها مدرسة سيدي الكتاني 1775م ومدرسة سيدي الأخضر الملحقة بالمسجد 1789م واللذان كان الطلبة يتلقون فيهما مواد الفقه والتفسير والتوحيد والحديث، ويعزى إلى كل من الشيخ عبد القادر الراشدي المفتي الحنفي والشيخ شعبان بن جلول القاضي الحنفي والشيخ العباسي المالكي، الفضل في تبسيط مضامها للطلبة. أوجين فايست: تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي (1792م/1873م)، ترجمة صالح نور، ط1، دار قرطبة للنشر والتوزيع، 2010، ص ص46-53.
- (4) الترجمة الكبرى، ص153.---(5) يذكر أبو القاسم سعد الله أن رسالة الوينسي عبارة عن نقول جمعها من مؤلفات كل من مصطفى الرماصي وعبد الرحمن الأحضري وعبد الله العياشي وأحمد بن ناصر الدرعي. تاريخ الجزائر الثقافي، (1500-1830)، ج2، عالم المعرفة، الجزائر، 2011، ص138.
- (6) أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص342.---(7) الترجمة الكبرى، ص153.---(8) نفسه، ص153.
- (9) نفسه، ص154.---(10) نفسه، ص154.---(11) الترجمة الكبرى، ص154.---(12) نفسه، ص154.---(13) نفسه، ص155.
- (14) أبو القاسم محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف ج1، تقدم محمد رؤوف القاسمي الحسني، دار هومة للنشر 1991، ص204.
- (15) محمد الصالح العنتري: الفريدة المونسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها ( المعروفة بتاريخ قسنطينة)، تحقيق يحي بوعزيز، ط1، دارهومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2005، ص175.---(16) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص311-310.
- (17) نفسه، ج2، ص276.---(18) العنتري: الفريدة المونسة، ص175.---(19) الحفناوي، ج2، ص225.---(20) نفسه، ج2، ص224.
- (21) الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص144.---(22) نفسه، ج2، ص113.---(23) العنتري: الفريدة المونسة، ص175.
- (24) الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ص113.---(25) نفسه، ج2، ص444؛ العنتري: الفريدة المونسة، ص175.
- (26) الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص336.---(27) نفسه، ج2، ص114.---(28) نفسه، ج2، ص444.---(29) الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص342.
- (30) عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقيق محمد غانم، منشورات مركز البحث في الانثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، وهران، 2005، ج1، ص53.
- (31) محمد العنتري: الفريدة المونسة، ص176، 175.---(32) الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص6.---(33) نفسه، ج2، ص6.

(34) نفسه، ج2، ص6.---(35) نفسه، ج2، ص6؛ قلد عبد الرحمن باش تازري الشيخ أبا العباس أحمد زروق ت 1493/899م كذلك في عناوين مؤلفاته منها عنوان الشيخ زروق الموسوم بـ"عمدة المريد الصادق"، وهو في التربية الصوفية على الطريقة الشاذلية. حققه إدريس عزوزي، ط1، مطبعة فضالة الحمديّة، المغرب 1998.---(36) تعريف الخلف، ج2، ص6.---(37) نفسه، ج2، ص196.---(38) الترجمة الكبرى، ص144 وما بعدها.

(39) العنتري: الفريدة المُنسّنة، ص147، 148.---(40) حول هذا النشاط انظر من الدراسات الجادة مقدمة التحقيق الذي أعده أبو القاسم سعد الله في كتاب عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1987، صص7-19؛ وكذلك كتابه شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1986، ص5 وما بعدها؛ ناهيك على دراسة فاطمة الزهراء قشي، الحياة الفكرية في قسنطينة خلال العهد العثماني (مساهمة عائلة الفكون أو عرض كتاب التوازل) ضمن أعمال المؤتمر العالمي الثالث للدراسات العثمانية حول الحياة الفكرية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، جمع وتحقيق عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية المورسكية والتوثيق والمعلومات، ط1، 1990، صص320، 335.---(41) حول اقتداء "فيرو" بتحريري بروصلار ودوفول في الكتابة حول تاريخ المعاهد الدينية والتعليمية أنظر مقاله:

Les anciens établissements religieux musulmans de constantine, Revue Africaine, douzième année, N° 67. Janvier 1868, libraire éditeur, Alger 1868. p121.

(42) حول أهمية هذه السجلات ودورها في كتابة التاريخ المحلي لمدينة قسنطينة، انظر: Féraud: op.cit, p 126.

(43) تلخص الوثيقة أسباب اعتناء صالح باي بالأوقاف في إهمال وكلاء المساجد بقسنطينة وتفریطهم في الأوقاف التي ضاع منها الكثير حتى صارت بعض المساجد مربطاً للدواب وأخرى أغلقت أبوابها وآل أمرها إلى الخراب. Féraud : opcit,p123.

(44) تضمنت الوثيقة جملة الإجراءات العملية والتشريعية التي أقرها صالح باي وهي تتمثل في تكليف القضاة بالبحث على المساجد التي اندثرت وما كان لها من أوقاف وثبتوا ذلك في أربعة سجلات دونوا بها أوقاف مدينة قسنطينة وهي موزعة في سجل عند صاحب بيت المال والسجل الثاني عند شيخ البلد والثالث عند قاضي الحنفية والرابع عند قاضي المالكية، واتبع ذلك بقوانين تسمح بمراقبة وكلاء المساجد وكيفية التصرف في مال الوقف Féraud : opcit,p123.

(45) سعد الله: تاريخ الجزائر، ج3، ص28.--- Féraud: op.cit, p.23-46

#### Abstract:

*The cultural ,spiritual and scientific features subject in constantine during the late of the ottoman period is considered from the subjects that characterized with the historical artical rarity ,lack of canstantine historical heritage quality ,and what it faces from studies written by the french civil affairs officers.*

*On the light at what they hauled from endowments documents and registers made them draw the spiritual and the scientific scene in canstantine during the late of the ottoman period.*

*According to a faithful colonial goals, which push me to re-read the subject on light of available heritage textes (historical, journey's literature).*